مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السادسة عشرة : العدد الحادي والستون - ربيع الثاني ١٤٢٩ هـ - مارس (آذار) ٢٠٠٨ م

صورة من ورقة مخطوط

ديوان الحافظ الشيرازي من مكتبة راضا رانفور - الهند

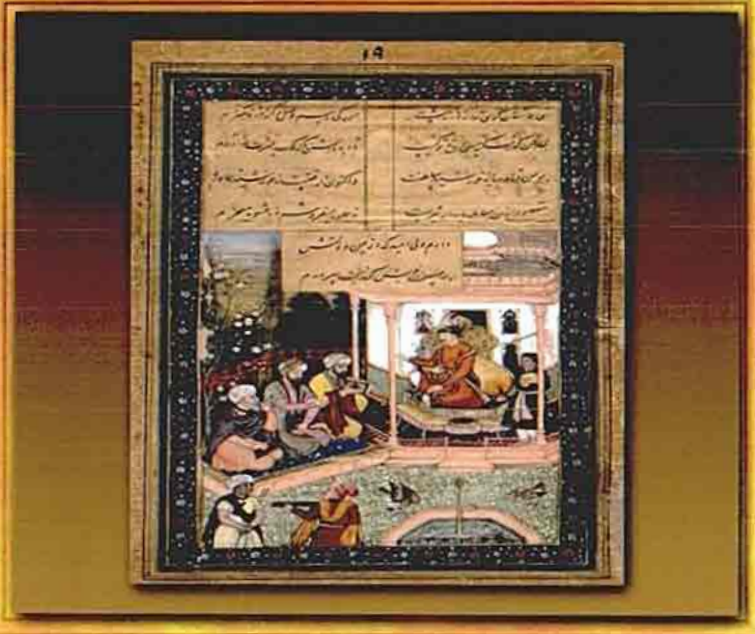

Copy of manuscript idiwan al-Hafiz Al Sherazli from Riza Ranfor library - India

إبراهيم السامرائي لغويا وناقداً

د. محمد سعيد صمدي
طنجة - المغرب

من القضايا التي تشكل تحديات كبرى ومصيرية أمام الأمةِ القضيةُ اللغويةُ، ذلك أن حيوية الحراك المجتمعي وتنامي الصراع الداخلي جعل من اللسان، الذي كان يمثل في أحقاب متوالية ميثاق الوحدة ومكون التواصل والتعبير والإبداع، مبعثَ شق لحمة هذه الوحدة في سباق حثيث نحو مزاحمة اللغة الجامعة، لغةِ الدين والوطن ومواكبة التقانة وأصالة الإبداع.

وفي زحمة هذا التجاسر على اللسان العربي من بعض ذويه. وأمام إفساح المجال واسعاً في المناهج التعليمية ووسائل الإعلام العمومية للغات الأجنبية واللهجات المحلية. وإحلالها المكانة التي أصبحت لا تنافس فقط اللغة الوطنية: بل تشعرها بالغربة والغرابة وضيق الحياة داخل رحابة الساحة العربية. في هذا الخضم المتموج صارع ونافح رجال عن حمى وشرف هذه اللغة. صراع حياة وبقاء ترعاه العناية الربانية التي صانت هذه اللغة بصون وحفظ تنزيله الحكيم. ويصعب على الدارس عدّ أولائك الرجال الذين أفرغوا أنظارهم وبحوثهم وتدقيقاتهم للدرس اللغوي العربي تحقيقاً وتأليفاً لكثرتهم واختلاف أزمانهم ومواطنهم.

وسأحاول في هذه العجالة أن أتذكر بالذكر الحسن أحد رواد الفكر اللغوي العربي وتراثه والقضية اللغوية عموماً. وليس من الغريب أن يكون هذا العالم اللغوي الفذ من أرض العراق الشقيق. أرض المدرستين الكوفة والبصرة اللغويتين: يتعلق

الأمر بالأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي رحمه الله.

وتتوافق هذه الكتابة في شهر صفر الخير مع الذكرى السادسة لرحيله إلى الدار الأخرى، ونروم من خلال هذا التذكر والإحياء إثارة الانتباه إلى ما خلفه الرجل من تحابير وتحقيقات جديرة بالتناول والاهتمام والدراسة: وقد كان رحمه الله واعياً بما يلحق المبيضات من التأليف من الضياع أو الاحتكار إذا بقيت مخطوطة، فعمل جاهداً على طباعتها ونشرها. بل إنه أدرك أيضاً ما يلحق البحوث المنشورة في المجلات من تناثر وتفرق. فجمع أشتاتها في مجاميع مطبوعة سهلت على الباحثين ضنك البحث والتنفير «هذه أشتات ضممت بعضها إلى بعض لما جعلت بينها من وشائج أصيلة، وإني لأوثر ألا تبقى أشتاتا متباعدة هنا وهناك، ولا أرى أن القارئ بعيد عني وهو يستطلع هذا الجمع اللفيف»[1].

نبذة من ترجمته:

ولد الأستاذ اللغوي المعجمي إبراهيم السامرائي سنة ١٩٢٣هـ بالعمارة جنوب العراق، وتابع جميع أسلاك الدراسة إلى آخر شهادة تمنح وقتئذ ببلاده، وهي شهادة الماجستير. ثم انتقل بعد ذلك إلى باريس، حيث أنهى دراسته العليا بجامعة السوربون سنة ١٩٥٦هـ، وحصل بها على شهادة دكتوراه الدولة في موضوع «الجموع وأسماء الجموع في القرآن: العربية واللغات السامية»، وهي دراسة» تبنت فكرة المقارنة في اللغة والنصوص القديمة باللغات السامية، وهو منهج لم يكن معروفاً. ولكن العلامة السامرائي خاضه بثقة ودأب وصبر»[2].

بدأ مسيرته المهنية معلماً سنة ١٩٤٥. وبعدها أستاذاً بالتعليم الثانوي، ثم توقف عن التدريس ليُختار ضمن بعثة علمية لمتابعة الدراسة بالسوربون سنة ١٩٤٨. ليعود بعد ثماني سنوات إلى بلاده، حيث عُين مدرساً لفقه اللغة بكلية الآداب ببغداد، وعمل بعد ذلك أستاذاً بأهم الجامعات العربية: تونس ولبنان والكويت والأردن واليمن: وعين عضواً في مجامع اللغة العربية في الوطن العربي والهند وفرنسا. وخلف في مجال التأليف عدة كتب ومقالات وتعقيبات مدققة تهم تاريخ العربية ونحوها وصرفها. والدرس النقدي والتراثي، وبرز في مجال المقارنة بين لغته العربية وسائر اللغات السامية. كما اعتنى بأصول العاميات العربية، وحقق الكثير من أمهات مصادر اللغة والأدب. كان لإتقانه اللغتين الفرنسية والانجليزية دوراً بارزاً في تعميق نظر في الاشتغال اللغوي ومقارنة اللغات.

لقد دفعته غيرته على العربية إلى تتبع الكثير من المصادر والمظان المحققة بالتصحيح والتصويب الدقيقين. وعلى ورغم ما قد يظهر في تلك الكتابات من صرامة علمية نادرة. فإنّ الهاجس العلمي والغيرة على لغته والاحتفاء بالمصدر المحقق والثناء على مجهود المحقق كان كل ذلك محركاً بريئاً وسلوكاً شافعاً في إتباعه هذا المنهج الصارم في تقويم الإصدارات اللغوية ومحاسبة أصحابها. إنه في نهاية المطاف كان يتوخى الذود عن حمى هذه اللغة في زمن كانت التحديات والانتكاسات ومعاول الهدم تصوّب من طرف بعض المستلبين من أبنائها. خاصة في العقود الأخيرة من الألفية المنتهية بدءً من الستينات وإلى الآن.

خلف المرحوم مكتبة لغوية فريدة في بابها، تمكنت من استجماع أغلب عناوينها، وهي مرتبة بدون أي اعتبار، إذ صعب علي ضبط تاريخ كتابتها:

١) الأصول التاريخية العامية البغدادية في ألف ليلة وليلة.

٢) العامية التونسية.

٣) فقه اللغة المقارن (٣١٦ ص).

٤) مع المصادر في اللغة والآداب (في جزأين).

٥) رحلة ابن عابد الفاسي (من المغرب إلى حضرموت)[٢٠]. وهو في ١٦٠ ص.

٦) في شرف العربية (١٦٦ ص).

٧) في شعاب العربية (٢٣٦ص).

٨) من سعة العربية (٢٤٧ص).

٩) الفعل زمانه وأبنيته (٢٥٢ص).

١٠) لغة الشعر بين جيلين.

١١) العربية بين أمسها وحاضرها.

١٢) العربية تاريخ وتطور (٣٩٦ص).

١٣) التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق.

١٤) تنمية العربية في العصر الحديث.

١٥) نزهة الألباء للأنباري - حققه ونشره سنة ١٩٥٩.

١٦) شعر الأحوص - جمع وتحقيق-.

١٧) التطور اللغوي التاريخي (٢٤٠ص).

١٨) كتاب النخل لأبي حاتم السجستاني - تحقيق- (١٦١ص).

١٩) مقدمة في تاريخ العربية (٩٢ص).

٢٠) محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية (١٦٥ص).

٢١) خطط البصرة وبغداد، تأليف: لويس ماسينيون، ترجمة وأضاف إليه (١٢٦ص)[٢١].

٢٢ المرصّع لابن الأثير، تحقيق (٣٦٧ص).

٢٣) أشتات في الأدب واللغة.

٢٤) أوهام المعاصرة دراسة نقدية.

٢٥) إعلام الورى فيما نسب إلى سامرا (١٧٧ص)[٢٢].

٢٦) البنية اللغوية في الشعر العربي المعاصر.

٢٧) السيد محمود شكري الألوسي وبلوغ الأرب (١٥٢ص).

٢٨) النحو العربي في مواجهة العصر (٢٤٠ص).

٢٩) النحو العربي ونقد وبناء.

٣٠) حديث السنين (سيرة ذاتية).

٣١) درس تاريخي في العربية المحكية.

٣٢) رحلة في المعجم التاريخي.

٣٣) معجم ودراسة في العربية المعاصرة.

٣٤) معجميات (٤٠٨ص).

٣٥) من معجم عبد الله بن المقفع (٢٤٨ص).

٣٦) معجم الدخيل (٢١٣ص).

٣٧) معجم ودراسة في العربية المعاصرة (١٩٧ص).

٣٨) المعجم الوجيز في مصطلحات الإعلام - بكسر الهمزة - (٢١٤ص).

٣٩) معجم الفرائد[٢٣] (٢٠٠ص).

٤٠) معجم الجاحظ[٢٤].

٤١) من الضائع من معجم الشعراء للمرزباني (١٦٨ص).

٤٢) مع نهج البلاغة: دراسة ومعجم (٣٨٤ص).

٤٣) الأصوات اللغوية.

٤٤) المتشابه لأبي منصور الثعالبي. تحقيق (٧٢ص).

٤٥) فُلك القاموس لعبد القادر الحسيني - تحقيق - (٨٠ ص).

٤٦) النبات والشجر والحيوان والبيئة.

٤٧) رسائل ونقد (٢٤٥ص).

٤٨) أشتات مؤتلفات (٢٢٨ص).

٤٩) كشف النقاب عن الأسماء والألقاب. لأبي الفرج ابن الجوزي. تحقيق (٢٤١ص).

٥٠) كتاب الكتّاب لابن درستويه. تحقيق (١٦٧ص)

٥١) في مجالس أبي الطيب المتنبي (١٦٨ص).

٥٢) دراسات في اللغتين السريانية والعربية (٢٠٧)ص.

٥٣) مع المعري اللغوي (٢٣٦ص).

٥٤) في اللهجات العربية القديمة (١٩٤ص).

٥٥) الأعلام العربية: بحث في أسماء الناس (٢٤٣ص).

٥٦) في المصطلح الإسلامي (٢٢٩ ص).

٥٧) من وحي القرآن (١٨٢ص).

٥٨) التذكير والتأنيث[٨].

٥٩) كتاب يفعول للصاغاني[٩].

وكان من آخر ما وقفت عليه بعهد وفاته رحمه الله مقالة نشرتها مجلة «الفيصل» (مارس ٢٠٠٢) تحت عنوان (في الصحافة الإقليمية) رصد فيه كعادته لغة الصحافة العربية من خلال النموذج الإعلامي المغربي. ومقالة أخرى نشرتها مجلة «المنهل» - عدد أبريل ماي ٢٠٠٢ - تحت عنوان «الكلم الذي لزم النفي»، وبعد سنة نشرت نفس المجلة تعقيبه على الأستاذ السيد الجاسم تحت عنوان «الحياد والعلم (الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرياضي)» ع يونيو يوليوز ٢٠٠٣. يقول في مطلع هذا التعقيب: «لقد بدأت هذه السلسة بالكلام على (السيف اليماني في فجر أبي الفرج الأصفهاني) لمؤلفه الأستاذ وليد الأعظمي. وكنت قد قرأت هذا الكتاب ووقفت على ما كان قد حفز الأستاذ الأعظمي إلى أن يدعو إلى قتل الأصفهاني لو كان حيا. وكأنه أراد أن أبا الفرج مستحق للقتل»[٤].

وقد عرف قلم إبراهيم السامرائي طريقة إلى أبرز المجلات المتخصصة في مختلف الأقطار العربية كالمجلات العراقية الرائدة في زمانها. مثل «المورد» و«سومر» و«مجلة المجمع العلمي العراقي» و«مجلة كلية الآداب» و«مجلة كلية التربية» و« المعلم الجديد». والذخائر اللبنانية. والبحث العلمي والمناهل ودعوة الحق المغربية. والفيصل والمنهل السعوديتين. وغيرها مما كانت تجمعه وتنشره مجاميع اللغة العربية التي انتمى إليها.

توفي رحمه الله يوم ٢٥أبريل ٢٠٠١ الموافق فاتح صفر ١٤٢٢هـ. وقد علمت عن طريق صحيفة عربية شهيرة أن أسرة الفقيد أهدت مكتبته الخاصة والمجموعة الكاملة لمؤلفاته إلى المكتبة المركزية في جامعة بغداد. وقد خصص لها مكان بارز. مع لوحة تحمل اسمه ونبذة عن سيرته العلمية.

رؤاه المرجعية في الاشتغال بالدرس اللغوي:

إن المتأمل في هذا المسرد التأليفي. الذي خلفه الأستاذ البحاثة إبراهيم السامرائي. يدرك عنايته الكبرى باللغة العربية وفنونها. وكيف لا يكون كذلك وهو الذي هيأه القدر منذ نعومة أظافره للدراسة والتبحر في مدونات اللغة العربية الممتدة عبر الأعصر. ذلك أنه تذوق مصادر تراث اللغة نظماً ونثراً منذ بداية صياغة شخصيته العلمية.

وتتبع بهذا التذوق مسار التطور التاريخي للفظة العربية وحمولاتها الدلالية. واستطاع أن يقف على التحول الذي طرأ على عربيتنا الذي يطلق عليها «العربية السائرة الدارجة أو العربية الحاضرة». واستقصى غريبها ونوادرها وشواردها: وهو ينظر إلى العربية والاشتغال بها بهذا المنظار: «إن أعظم حدث في تاريخ العربية هو القرآن الكريم. وذلك لأن هذه اللغة الشريفة قد أمدت العربية بنمط خاص موحد صار هو العربية. بحيث انحسرت عن هذه اللغة أنماط كثيرة فانصرفت إلى الغريب والشاذ والنادر. وهذا يعني أن العربية في حقبة ما قبل الإسلام. وفي العصر الإسلامي. وقد نتجاوزه إلى شيء غير قليل من عصر بني أمية. كانت لغات عربية. ولا أريد أن أستبدل بهذا الاسم ما يدعى في عصرنا (لهجات). فقد كانت دلالة (اللغة) أصدق من لهجة فيما أضطلع به في هذا الدرس. ولا أريد بـ(اللغات) ما أراد اللغويون الأقدمون من إفادة التلة والندور: بل إنها لغات لاختلاف بعضها عن بعض دلالة وأبنية. فالكلمة تفيد شيئاً لدى قبيلة. وتفيد غيره لدى قبيلة أخرى. والكلمة لها بناء في إفرادها وجمعها وتأنيثها وتذكيرها لدى قبيلة. ولها ما يختلف عن ذلك لدى قبيلة أخرى»[١٠].

وهكذا بنا إستراتيجية كتاباته على النظر التاريخي للمسلك اللغوي العربي. ودعا الناظر في بحوثه إلى أن «يتفهم أن هذه اللغة في حدودها الواقعية في عصرنا غيرها بالأمس. وأنا أدعوه أيضاً إلى درسها درساً جديداً مستقرياً نصوصها في مختلف العصور ليستكمل له البحث العلمي التاريخي. وبذلك يتهيأ لهذه العربية أسلوب في الفهم والعلم على نحو ما هو جار في اللغات المتقدمة في عصرنا هذا»[١١]. وكان يعتقد أن عيب أهل اللغة العربية وكتابها على الخصوص يكمن في عدم اعتمادهم على المعجم العربي القديم بخصوص توليد المعاني وتوظيف المفردات التوظيف اللغوي السليم. يقول: «إننا نحن معاشر العرب. ولا سيما أهل العلم منهم. لا نرى فينا حاجة إلى الرجوع إلى المعجم القديم... وأنا إذ أضع بين يدي القارئ هذه الفصول أدفعه إلى أن يتبين أن المسيرة لهذه اللغة في مادتها وأدبها مسيرة متصلة يعتمد حاضرها على ماضيها. فالقديم منها مرتبط بالجديد أوثق ارتباط»[١٢].

ويُعزى رحمه الله الكثير من الأساليب الغريبة التي أقحمت في اللسان العربي المعاصر إلى تأثر الإنسان العربي بالفكر الأوروبي وإلى عملية الترجمة. يقول: «فقد جدّت فيها أساليب كثيرة لم تكن إلا وليدة الترجمة كانت هذه الأساليب غريبة عن العربية. فهي بنت ظروف أحوال اجتماعية لم توجد في هذا الشرق العربي. غير أن العربية وهي السهلة الطيعة لم تتنكر لهذه الأساليب فقد قبلها الاستعمال. وراضها حتى توهم القارئ وهو يقرأ صحيفته اليومية أو مجلته الجديدة أن الذي يقرأه عربي أصيل لم يتخط إليه الدخيل الجديد... وتجاوزت هذه الأساليب لغة الصحف السائرة إلى المقالة الأدبية المدنية ...»[١٣].

ولا يرى غضاضة في تدريس العلوم البحتة باللغة العربية. بل يعتبر إقصاء توظيف العربية في الحقل العلمي بمختلف تخصصاته جفاءاً ودونية واستلاباً أضرَّ باللغة العربية الغنية. يقول: إننا نواجه في عصرنا هذا مشكلة تدريس العلوم الحديثة بالعربية. وما أظن أن المشكلة على قدر كبير من الصعوبة لو أحسنا الوصول إليها. واسنا بدعا بين الأمم إذا أردنا أن نسلك هذا الطريق. ذلك أن الأمم. المتقدمة منها وغير المتقدمة. سلكت هذا السبيل. فالفرنسي يدرس العلوم

بالفرنسية، والألماني بالألمانية، والروسي بالروسية، واليوغسلافي بلغته الخاصة، والياباني باليابانية، والتركي بالتركية، والإيراني بالفارسية. ألا ترى أن الحق يفرض علينا أن نعلم أن عربيتنا أكثر تقبلاً للعلم الحديث من كثير من اللغات ولا سيما الشرقية منها..[١١].

والمتذوق للخطاب العربي، والغائص في استكناه جمالية السرد العربي، بيانا ونظماً وبلاغةً ومعجماً كإبراهيم السامرائي، لا يمكن أن يفوت عنه فرصة إعمال النظر والتأمل في آي الله المحكمة التي نزلت بلسان عربي مبين. يقول في طالعة كتابه الذي خصصه لهذا الموضوع: «وبعد فإني مقبل على كلام الله - جلت عظمته - لأقف على أنماط من الذكر الحكيم، أتحرى فيها أصالة هذا الحدث العظيم... وأريد أن أتخذ من (الأصالة) مادة أدخل بها في المقام الرفيع للكلم السامي الذي حفل به كتاب الله قرآنا عربياً فصيحاً. وأريد بهذه الأصالة جماع مواد هي: الصدق والإحكام والحسن وإصابة دقائق المعاني»... ذلك أني معني بالكلمة وبنائها وأصواتها، وكيف جاءت في الذكر مكتملة في مادتها، مشتملة على ضروب من الحسن، حافلة بما ضُم إليها من الكلم فتأتّى من ذلك نظام فيه إحكام وانسجام، وفاءً بما يحسن به التركيب من صفات، وإدراكاً لما يعز من المعاني، غير آخذ نفسي بمبحث البلاغة ومصطلحها المعروف[١٢].

ولا يرى غضاضة في تدريس العلوم البحتة باللغة العربية، بل يعتبر إقصاء توظيف العربية في الحقل العلمي بمختلف تخصصاته جفاءً ودونية واستلاباً أضرّ باللغة الوطنية الرسمية للبلدان العربية. يقول: إننا نواجه في عصرنا هذا مشكلة تدريس العلوم الحديثة بالعربية، وما أظن أن المشكلة على قدر كبير من الصعوبة لو أحسنا الوصول إليها، واسنا بدعا بين الأمم إذا أردنا أن نسلك هذا الطريق، ذلك أن الأمم، المتقدمة منها وغير المتقدمة، سلكت هذا السبيل، فالفرنسي يدرس العلوم بالفرنسية، والألماني بالألمانية، والروسي بالروسية، واليوغسلافي بلغته الخاصة، والياباني باليابانية، والتركي بالتركية، والإيراني بالفارسية، ألا ترى أن الحق يفرض علينا أن نعلم أن عربيتنا أكثر تقبلاً للعلم الحديث من كثير من اللغات ولا سيما الشرقية منها..[١٣].

إن من آمن إيمانا بثراء وتاريخية هذه اللغة وصلاحيتها للتداول والتواصل والتربية والتعليم والبحث والإبداع، لا يسعه إلا أن يبذل جهده في إبراز مكامن القوة فيها ولمساتها البيانية والجمالية. ولقد وجد إبراهيم السامرائي في نفسه اقتداراً ذاتيا، وتأهيلاً علمياً، وانفعالاً وجدانياً جياشاً قاده إلى التجرد لخدمة هذه اللغة وما تزخر به من درر وفرائد تناثرت في المصادر المطبوعة والمخطوطة، زاد من إيمانه هذا ما تعانيه العربية من مزاحمة لغوية، وإحياء لنعرة اللهجات والعاميات، وظهور تيار الحداثة الذي حول خطابه إلى قيم الاغتراب والتحرر اللفظي والدلالي والغموض التركيبي: يقول رحمه الله، وهو بصدد النظر في المعجم القرآني: «ورأيت أن يكون من هذا المجموع اللفيف كتاباً[١٤]. أو كتيباً أقدمه لسلسلة كتاب الأمة أبتغي فيه الخير لهذه الأمة، التي تنكرت للغة التنزيل في ضجة ما أتى به العصر من جديد، وسمي بـ(الحداثة) وما هو منها...

وكأني أدركت أن أهل عصرنا هذا، قد قصروا في هذا الأمر، فلم يكن لهم فيما دأبوا عليه شيء من هذا، فقد شرع في شيء منه أحد أعضاء مجمع اللغة العربية في القاهرة، فلم يؤت عمله إلا ثمرة فجة لم ترض أهل العلم، وقد كثرت المحاولات في

درس القرآن. ولكنها في الأغلب الأعم قد تجنبت هذا السبيل المعجمي الذي تنوء به العصبة أولو القوة»[١٢٩].

إن الحداثة عنده مصطلح استبيح في حُرمة حقله الدّلاليّ المولّد. يقول: «...ثم طلعوا علينا بمصطلح (الحداثة). والحداثة هذه ينبغي أن تكون في حيز الجديد الذي ضاعت فيه الكلمة واعتدي على حرمها. وأهينت أيما إهانة. هي إذن الإغماض الذي زعموا. والوزن المضطرب الذي كتبوا»[١٣٠].

منهجه في التأليف والنقد:

الظاهر أن السامرائي لم يسمع بتأليف أو تحقيق لنص له علاقة باللغة والأدب - مشرقاً ومغرباً - إلا وعمل على أن يحصل عليه؛ وكان يستتبع قراءته بتدوين تعاليق دقيقة في بابها. يحرص على أن ينشرها فيما تيسر إليه من قنوات النشر والإصدار. ولا أشك أم كل من وقعت إلى يديه هذه البحوث - أو بعضها - أفاد منها كثيراً. ويظهر من مسرد تآليفه أنه عمل على تحقيق بعض النصوص اللغوية والأدبية المخطوطة.

وهذا المسلك التأليفي، ونقصد به تعليقاته على ما نُشر من تحقيقات. أفاد كثيراً من جهة التعريف بتآليف هي في حكم المخطوط قد لا تصل إلى بلد من البلدان للأسباب والمعيقات المعروفة. فيكون هذا التعريف سبباً للباحث المعتني في البحث والمراسلة والسؤال قصد الوصل إلى مبتغاه.

إن السامرائي كان غيوراً إلى حد بعيد على المسلك اللغوي الصحيح والسليم، خاصة فيمن انتصب للاشتغال بالحقل اللغوي أو الأدبي. لذلك أبدى تشدداً صارماً إزاء بعض التعابير والتراكيب والألفاظ، التي صاغها وأوردها بعضهم بشكل يشين بهاء اللغة جماليته الأصيلة. ويمكن أن نورد هنا هذا المثال من كلامه. رداً على السيد الهاشمي الفيلالي الوزير المغربي السابق[١٣١] «ليس هذا عيبا لو أن مثل هذا الكلام وقع في كتاب آخر، يتصل بمصنف آخر وبكتاب آخر. وليس هذا الكتاب الذي هو معجم قديم أو ما يتصل بمعجم قديم. له شأن في تاريخ هذه اللغة الشريفة»[١٣٢].

ويتتبعُ النصَّ المحقق وما يلحق به من تعاليق هامشية في أدق تعابيرها ومعلوماتها وطريقة التعليق على النص الأصلي. ولا يترك أية إيحاءة دخيلة أو كلمة لغوية حديثة أو تركيب فاسد إلا ووقف عليه منبها لسياقه الأصلي. وما كان يجب أن يلتزم بها المؤلف المنتظم داخل النسق اللساني العربي. لنلاحظ تعليقه على كلمة (مباشرة). يقول: «إن كلمة (مباشرة) التي وردت مرات عدة في التعليق كلمة حديثة لايحسن أن تكون في كلام على معجم قديم. وهي من Directement الفرنسية»[١٣٣]. ويعلق على المتداول الآن (من طرف فلان) فيقول: «عبارة ضعيفة ليست عربية. بل جاءت من الفرنسية De papart de فلا يحسن أن تقال في كلام على معجم قديم. وقد ترد هذه العبارة في بلدان المغرب في عصرنا في لغة الصحافة والإدارات الحكومية. وليس في عمل لغوي. ولكل مقام مقال»[١٣٤].

إن المتتبع لمثل هذه الملحوظات لا شك سيجد فيها متعة في القراءة وتقويماً في اللسان واختلافاً في الرأي. واجتهاداً غير مسبوق قد يصيب صاحبه وقد يخطئ؛ وهذا دأب البحث العلمي وخاصة منه التراثي وبصفة أخص البحث اللغوي. والناظر أيضاً في ما قام به من تحقيقات لبعض المصادر سيستطيع أن يتقرب من المنهج الذي سلكه السامرائي في بحوثه. وخصوصية الكتابة التي

تذكرنا بنفس القدامى والأصالى.

ويمكن أن نجمل رؤيته النقدية في تتبعه للآثار المحققة، والمقصدية لمثل هاتيك النصفية، وأنني لأميل أشد الميل إلى القول بالتوسع معتمداً على سعة هذه اللغة السمحة التي أثبتت طوال عصور عدة أنها لغة العقل الراجح والرأي المبتك. إلا أني أقف وقفات فيها كثير من الحساب والتدقيق إزاء من يتصدى للتصحيح. فيخطئ كلمة أو أسلوباً ويصوب أخرى: ولا بد لي أن أقول: أم (معجم الأخطاء الشائعة) من الكتب النافعة، وإن جهد الأستاذ العدناني فيه كثير، وإنه نظر إلى الخطأ نظرا فيه من التدقيق والحكمة شيء كثير فلم يقطع بالخطأ إلا بعد أن ينظر في القول نظرة واسعة معتمداً على المظان العلمية الأصيلة. غير أني وددت أن أقف عليه وقفات خاصة أسدي فيها لهذه اللغة الكريمة بعض ما المؤلف الفاضل من أياد لا تجحد»[٢٥].

إن هذا التتبع المدق كان هماً أرّق السامرائي حتى اعتقد البعض أنه يتحامل ويتنقص من قيمة العمل. ولم يكن الأمر كذلك كما يصرح بنفسه. ففي كلامه الذي وجهه للأستاذين كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي اللذين أحسا بشيء من ذلك في تعليقه على الجزء الأول[٢٦]. فأجابهما في تعليقه على الجزء الثاني: «إني لم أرد أن أجرّح مادة الكتاب، ولا أسعى للنيل من صاحبه، أو أغض من قدره، فهو علم مشهور، وشهرته شيء يعلمه الخاص والعام، وها أنا أعود إلى الجزء الثاني، فأقف على مواده وقفات تقصر أو تطول، ولعلّ من الكلم المعاد أن أذكر بخير جهد المحققين الفاضلين وما بذلا فيه من صدق وجد وعلم أكيد، ولعل من الكلم المعاد أيضاً أن أذكر الفوائد السنية التي حفل بهذا المعجم مما ينبئ عن علم صاحبه، وعلو كعبه، وعظيم دراسته[٢٦].

إنه من الوفاء للبحث العلمي أن نقول: إننا أمام كتابات رجل يمثل علامة بارزة في تاريخ الفكر اللغوي العربي، ومن جميل الحظ أن المرحوم جمع تراثه، ووفت أسرته الكريمة بوضع هذا الإرث العلمي بين يدي الباحثين في جامعة بغداد الصمود والتاريخ والقيم... ولا يخامرنا شك في أن يلتفت طلبة الفقيد ودارسو اللغة إلى ما كتبه السامرائي في مجال الدراسات اللغوي... رحم الله الفقيد وأثابه عن خدمة لغة التنزيل الحكيم ثواباً حسناً. وشكر الله لأسرته حسن صنيعها.

●●●

الحواشي

١- في شعاب العربية: ٥، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠.

٢- مجلة الذخائر: غ ٨ص ٣٢٨.

٣- حققه بمعية عبد الله محمد الحبشي.

٤- نشره سنة ١٩٨١.

٥- نشره سنة ١٩٩٤.

٦- قال عنه: «أقول (جولة أخرى) مشيراً إلى أني صنعت (معجم الفرائد) ونشرته مكتبة لبنان، وجمعت فيه طائفة من المواد وقفت عليها في المعجم، وأشرت إلى موضعها التاريخي، وما آلت إليه... العربية تاريخ وتطور: ٩- هـ١.

٧- أشار إليه عند قوله: «لأبي عثمان الجاحظ مادة لغوية ذات قيمة تاريخية كبيرة، وكنت أشرت إلى هذا في كتاب لي مازال مخطوطاً وسميته معجم الجاحظ». ينظر كتابه: مع المصادر في اللغة والأدب: ٢١٠- هـ٢، ومعجمه هذا مطبوع الآن.

٨- أشار إليه عند ذكره لكتاب السجستاني (المذكر والمؤنث)، قال في الهامش: «كنت قد نشرت هذا الكتاب، وهو رسالة

صغيرة، في كتاب لي سميته (التذكير والتأنيث). وهو درس لغوي تاريخي ذيّلته بـ(الرسالة)، كتاب النخل لأبي حاتم السجستاني: ١١هـ١.

٩- ذكره قائلاً: «وكتاب بفعول للصاغاني... نشره الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في تونس. وقد أعدت نشره بعد حصولي على أصول مخطوطة. وأضفت إليه ما ليس فيه من هذا مما ورد في المعجمات وغيرها. ونشرته في بغداد» ينظر في ظلال القاموس: ٦٩- هـ١.

١٠- في شعاب العربية: ١٦٤.

١١- التطور اللغوي التاريخي: ١١.

١٢- مع المصادر في اللغة والأدب: ٤ و٢٠٧.

١٣ المصدر نفسه: ٢٣١.

١٤- في شعاب العربية: ٢٩٣.

١٥- من وحي القرآن:٥.

١٦- في شعاب العربية: ٢٩٣.

١٧- المقصود هنا «في شرف العربية».

١٨- في شرف العربية: ٢٤-٢٥.

١٩- العربية تاريخ وتطور: ٣٦٨.

٢٠- وقد قدم لكتاب «إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة (القاموس) لأبي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي الشركي الصميلي» تح: عبد السلام الفاسي والتهامي الراجي.

٢١- من مقالته مع إضاءة الراموس..../ مجلة البحث العلمي المغربية/ص ٩٤/ع١٤/١٩٩٣.

٢٢- المصدر نفسه: ٩٩.

٢٣- المصدر نفسه.

٢٤- مع المصادر في اللغة والأداب: ١١٧.

٢٥- حققا كتاب المساعد للأب أنستاس ماري الكرملي.

٢٦- مع المصادر في اللغة والأدب: ١٣٥.

المصادر والمراجع:

١- في شعاب العربية. لإبراهيم السامرائي. ط١. دار الفكر. دمشق. ١٩٩٥م.

٢ العربية تاريخ وتطور. لإبراهيم السامرائي. ط١. مكتبة المعارف. بيروت. ١٩٩٣م.

٣- مع المصادر في اللغة والأدب. لإبراهيم السامرائي. دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت. ١٩٨١م.

٤- كتاب النخل. لأبي حاتم السجستاني. لإبراهيم السامرائي. ط١. مؤسسة الرسالة. ١٩٨٥.

٥- التطور اللغوي التاريخي. لإبراهيم السامرائي. ط٣. دار الأندلس. بيروت. ١٩٨١.

٦- من وحي القرآن. لإبراهيم السامرائي. ط١. مؤسسة المطبوعات العربية. بيروت. ١٩٨١.

٧- في شرف العربية. لإبراهيم السامرائي. سلسلة كتاب الأمة. رقم ٤٢. ١٩٩٤.

٨- مقال (إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضافة القاموس). لأبي عبد الله محمد بن الطيب الفاسي الشركشي الحميلي. تحقيق عبد السلام الفاسي والتهامي الراجحي. للدكتور لإبراهيم السامرائي. منشور بمجلة «البحث العلمي» المغربية عدد ٤١ سنة ١٩٩٣م.